حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

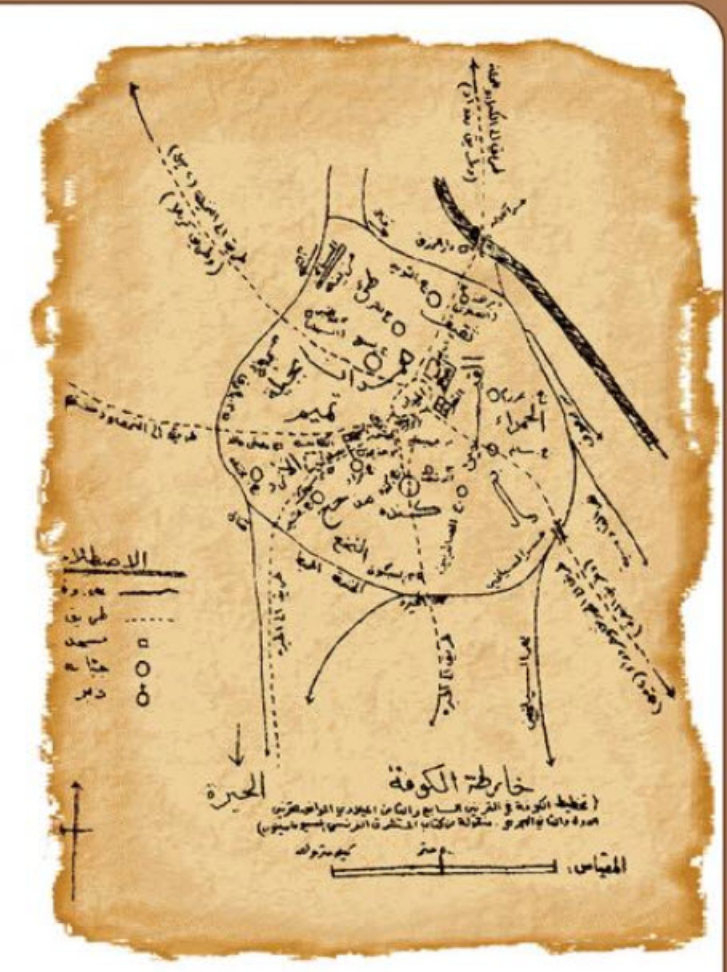

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

دار الإمارة في الكوفة

الأستاذ طالب علي الشرقي

رئيس اتحاد الأدباء في النجف سابقاً

المقدمة

في غمرة الفتح الإسلامي للشرق، واندحار القوات الفارسية في معركة القادسية، اتجه المسلمون إلى تشييد مدينة الكوفة، وهي المدينة الإسلامية الثانية بعد البصرة. أسسها القائد سعد بن أبي وقاص لتكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق. وأول ما قام فيها من الابنية المسجد الجامع ودار الإمارة.

التسمية

سمي هذا البناء بدار الإمارة لكونه مركز إدارة الحكم، ويسكنه أمير الجند، أو حاكم المدينة. وسمي أيضا قصر سعد، نسبة إلى سعد بن أبي وقاص باني الكوفة. وقد بني القصر أصلا ليسكنه سعد. وسمي قصر الكوفة لأنه أول قصر بني فيها آنذاك. وسمي قصر الخبال، سماه الخليفة عمر بن الخطاب في كتابه لسعد حيث قال: بلغني أنك اتخذت قصرا جعلته حصنا، ويسمى قصر سعد، بينك وبين الناس باب، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال[1] وسماه الإمام علي بقصر الخبال أيضاً حينما دخل الكوفة، قيل له: أي القصرين ننزلك؟ قال: قصر الخبال لاتنزلونيه[2] أراد منه قصر دار الإمارة فكأنه سماها به لما وقع فيها قبله من امراء الجور من الهلكة والنقصان[3].

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما سبب التسمية التي أطلقها الخليفة عمر والقصر في بدء نشوئه، ولم تمر به حوادث تذكر تجعل منه قصراً موصوفا بهذه الصفة.....؟

لعل الجواب ينحصر في أن الوصف الذي نقل للخليفة من أن القصر الحصين المغلق بباب يحجب الناس عن الوصول إلى الأمير مما قد يدفعه للإصابة بداء العظمة وخبل السلطة فتفسده، وينسحب ذلك على الرعية. يؤكد ذلك ما نقل للخليفة عن سعد انه قال، وقد سمع أصوات الناس من الأسواق: سكنوا عني الصويت[4]. وقال عمر لسعد: ..... ولا تجعل على القصر بابا يمنع الناس من دخوله[5] وقال البلاذري: اتخذ سعد بن أبي وقاص بابا مبوبا من خشب وخص على قصره خصاً من قصب فبعث عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة الانصاري حتى احرق الباب والخص[6].

الموقع

تقع دار الإمارة في وسط مدينة الكوفة بحيال مسجدها الكبير الذائع الصيت. قال الطبري: وبنوا لسعد دارا بحياله(أي المسجد) بينهما طريق منقب[7]. مائتي ذراع، وجعل فيها بيوت الأموال وهي قصر الكوفة اليوم[8] وكتب سعد بذلك إلى عمر، ووصف له موضع الدار وبيوت المال من الصحن مما يلي ودعة الدار فكتب إليه عمر: إن أنقل المسجد حتى تضعه إلى جنب الدار واجعل الدار قبلته[9].

باني القصر وتاريخ بنائه

قال الطبري: بنى ذلك له روزبه[10]، وفي تاريخ تمصير الكوفة وبناء القصر أقوال: قال المسعودي: تمصير الكوفة سنة

(١) ابن الاثير/ الكامل في التاريخ٢:٥٣٠ وانظر الطبري/ تاريخ الرسل والملوك ٤:٤٧.

(٢) نصر بن مزاحم المنقري/ وقعة صفين ص.

(٣) المصدر السابق هامش ص٦.

(٤) ابن الاثير/ المصدر السابق٢:٥٢٩.

(٥) الطبري/ المصدر السابق٤:٤٧

(٦) البلاذري/ فتوح البلدان ص٢٧٧.

(٧) منقب: الطريق الضيق بين دارين لا يستطاع سلوكه. (ابن منظور/ لسان العرب/ مادة نقب).

(٨) الطبري/ المصدر السابق٤:٤٥.

(٩) المصدر السابق٤:٤٦.

(١٠) روزبه بن بزر جمهر بن ساسان. كان همذانيا، وكان على فرج من فروج الروم فادخل عليهم سلاحا فاخافه الاكاسرة فلحق بالروم فلم يأمن حتى قدم سعد بن مالك (أبي وقاص) فبنى له القصر والمسجد(الطبري/ المصدر السابق٤:٤٨).

١٥هـ[١]. وقال اليعقوبي: في سنة١٧هـ نزل المسلمون الكوفة واختطوا الخطط وبنوا المنازل. وقيل كان ذلك في أول سنة ١٨(هـ)[٢].

وقال البلاذري: تحول سعد إلى الكوفة فاختطها واقطع الناس المنازل وانزل القبائل منازلهم وبنى مسجدها وذلك في سنة ١٧هـ[٣]. وذكر الطبري تمصير الكوفة في سنة ١٤هـ فقال في معرض حديثة عن حوادث سنة ١٤هـ:

«فبعث سعد رجلا من الأنصار يقال له الحارث بن سلمة ويقال بل عثمان بن حنيف أخا بني عمرو بن عوف فارتاد لهم موضع الكوفة اليوم فنزلها سعد بالناس، وخط مسجدها وخط فيها الخطط للناس[٤] وفي مكان آخر من تاريخه وفي حوادث سنة١٥هـ قال الطبري: قال بعضهم فيها(أي سنة١٥هـ) مصر سعد بن أبي وقاص الكوفة، دلهم عليها ابن بقيلة[٥]. وقال أيضاً بتفصيل: ارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة سبع عشرة وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران، وكان بين قيام عمر واختطاط الكوفة ثلاث سنين وثمانية أشهر اختطت سنة أربع من إمارة عمر في المحرم سنة سبع عشرة من التاريخ. وقال الواقدي: سمعت القاسم بن معن يقول: نزل الناس الكوفة في آخر سنة سبع عشرة. وحدثني ابن أبي الرقاد عن أبيه قال: نزلوها حين دخلت سنة ثماني عشرة في أول السنة[٦].

والمعروف أن سعداً نزح إلى الكوفة بعد تحريره المدائن وذلك سنة١٦هـ[٧] وإذا رجعنا إلى أقوال المؤرخين نجد أن سنة١٧هـ سواء في أولها أو في آخرها هي التاريخ الأقرب إلى الصحيح وفيها بوشر ببناء دار الإمارة.

مواد بناء الدار

المشهور أن بناء الكوفة اعتمد على بقايا آجر مباني الحيرة وإن كانت الحيرة أيام ذاك لا تزال قائمة، إلا أن بعض مبانيها وقصورها أثر فيها الزمن وتساقطت سقوفها وجدرانها أو نقضت، فأتى الناس على بقاياها حتى وصلوا في بعضها إلى الأسس فاقتلعوها قال الطبري: وبنوا لسعد دارا... بنى ذلك له روزبه من آجر بنيان الأكاسرة بالحيرة[٨] وأكد ذلك البلاذري بقوله:..... وحدثني شيخ من أهل الحيرة قال: وجد في قراطيس هدم قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر، إن المسجد الجامع بالكوفة بني ببعض نقض تلك القصور وحسب لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم[٩] وقال الآثاري الأستاذ محمد علي مصطفى: «إن أسس القواطع الداخلية لهذه الدار(أي دار الإمارة) قد شيدت من آجر منتزع من محلات أخرى»[١٠]. إلا أن الدكتور كاظم الجنابي يرى غير ما يراه الآخرون فيقول:... فدار الإمارة الذي بناه القائد العربي سعد بن أبي وقاص في الكوفة قد شيد بالأجر والجص، وتبين بعد الفحص الدقيق إن الآجر المستعمل في بناء الدار جميعه من صنع محلي غير مختلف ولا مهشم ولا منزوع أو منقول من محل آخر وهذا بخلاف ما زعم الرواة..[١١].

أما بقية مواد البناء كالأخشاب والأبواب فهي مما انتزع من مبان أخرى فلم تشر المصادر إلى خلاف ذلك. وقد ورد إن للدار باباً أمر الخليفة عمر ﷺ بإحراقه[١٢].

وكانت مادة الجص هي المادة الوحيدة التي استعملت في بناء الدار والمسجد.

مواد البناء وفق نتائج التنقيب

الطبقة الأولى: شيد القصر الأسفل (قصر سعد) من الآجر والجص وقد استعمل في سوره آجر بحجم واحد مقداره ٣٦×٣٦×٨-٩سنتيمتر ويلاحظ أنه قد اعتني بصقل وجوهه الخارجية ورصفه رصفا منسقاً أما في الداخل فلم يعن في رصف الآجر، واستعمل كسر الحجارة وقطع الآجر المختلفة الحجوم.

لم يعثر على بقايا تباليط من الآجر أو بقايا زخرفة من الجص أو نقوش من الأصباغ حيث لم يبق من هذه الدار سوى الأسس وصفين من الآجر. البارز فوق الأرض البكر[١٣].

الطبقة الثانية: شيد القصر الثاني من الآجر والجص، وأكثر الآجر المستعمل في بنائه مربع الشكل بحجم٣٦×٣٦×٩سنتيمتر. كما استعمل آجر مستطيل بحجمين ٣٨×١٧×٩سم و٣٦×١٨×٩سم. ويكثر الآجر المتوسط الحجم في بناء القواطع الداخلية للدور المشيدة داخل السور. ويستدل من نتائج الكشف في هذه الطبقة على أن قصر الكوفة في دوره الثاني كان أحسن حالا وأفضل بناءاً من أدواره الأولى والأخيرة، وإن أبواب سوره كانت أوسع[١٤].

(١) مروج الذهب٢:٣٢٩.
(٢) تاريخ اليعقوبي٢:١٣٩.
(٣) فتوح البلدان ص٢٧٤.
(٤) الطبري/ المصدر السابق٣:٥٧٩.
(٥) المصدر السابق ٣:٥٩٨. قال المسعودي: دلهم على موضعها ابن نفيلة الغساني(مروج الذهب٢:٣٢٩).
(٦) المصدر السابق٤:٤٢-٤٣
(٧) المصدر السابق٤:٢٦.
(٨) المصدر السابق٤:٤٥.
(٩) فتوح البلدان ص٢٨٤.
(١٠) مجلة سومر المجلد١٠الجزء١ص٨٣.
(١١) تخطيط مدينة الكوفة ص١٤٩.
(١٢) الطبري/ المصدر السابق٤:٤٧.
(١٣) مجلة سومر المجلد ١٠ج١ص٨٣-٨٤.
(١٤) المصدر السابق ص٨٢-٨٣.

الطبقة الثالثة: شيدت جدران الطبقة الثالثة من آجر وجص وما تزال وجوه معظمها تحتفظ بكسائها الجصي(البياض) والآجر مربع الشكل كبير الحجم في الغالب إلا أنه مختلف فبعضه المستعمل في الأسس بحجم٣٧×٣٧×٩سم أما الجدران فالآجر المستعمل فيها ذو قياسات٣٦×٣٦×١٠سم و٣٥×٣٥×٧سم و٣٣×٣٣×٧سم. وكان الآجر ذو الحجم الأخير هو المستعمل في بناء القسم الشمالي حيث وجد مصفوفا بنسق خاص وذلك بوضع صف من الآجر عموديا عرضيا وصف الساف الذي يليه عموديا طوليا. وكذلك عثر على آجر مستطيل الشكل أبعاده ٣٠×١٨×٧،٥سم استعمل في تغليف أوجه الأبراج في أدوار ترميمه وثمة آجر مربع صغير الحجم قياسه ٢٠×٢٠×٥سم وجد مستعملا في التبليط في جميع مرافق القصر وساحاته عدا ساحة واحدة عثر فيها على تبليط من الآجر بالحجم الكبير ٣٤×٣٤×٨سم. أما طريقة رصف آجر التبليط فكانت على نوعين:

الأول: رصف الآجر في صفوف تتوازى وامتداد جدران القصر وذلك في داخل الغرف والقاعات.

الثاني: رصف الآجر بحسب أقطاره وذلك في الساحات فقط أما الأبواب فتختلف كثيرا في سعتها، فأضيقها عرضه نحو٧٠سنتيمترا وتتسع الفتحات في أبواب القاعات الكبيرة فتبلغ نحو١٥٠سم وتصل سعتها أحيانا٢٥٥سم وذلك في الردهات المطلة على الساحة الكبيرة[١].

وعثر في الكوفة على بعض الزخارف الجصية كانت تزين جدران دار الإمارة من بينها زخارف جصية تعود إلى القرن الثاني الهجري قوامها قطع ذات زخارف محززة أو محفورة ذات أشكال هندسية وخطوط مختلفة، ويظهر على بعضها شريط يتكون من صف من المعينات الصغيرة المتجاورة.

كما عثر فيها أيضا على زخارف بالألوان المائية على طلاء جصي أبيض قوامها أشكال مربعة صغيرة تتصل رؤوس بعضها مع بعض فتكون أشكالا هندسية متدرجة رسمت في داخلها عناصر نباتية بعضها تمثل أوراقا أو ثمارا تشبه بعضها ثمرة الرمان، ومنها مارسم في داخله شكل إناء مملوء بالأثمار؛ بالإضافة إلى بعض الأوراد الكثيرة الأوراق، كما ظهر بينها شكل طير أيضاً[٢].

نتائج الحفريات

قامت مديرية الآثار العامة بالتنقيب لأول مرة عام١٩٣٨م. في إطلال دار الإمارة الواقعة خلف المسجد، وأظهرت فيها معالم السور الخارجي وبعض الغرف في قسمه الشمالي المتصل بجامع الكوفة، وكذلك في بعض أبراجه. وفي ١٩٥٣/١١/١٥م نقبت ووقفت على معلومات قيمة عن مخطط الدار وطبقاتها، كما حصلت على مجموعات من اللقى الأثرية المهمة. وفي منتصف كانون الأول عام١٩٥٥م وجدت مديرية الآثار العامة في تنقيباتها في أرض دار الإمارة في الكوفة جزءً من التصاميم التي كانت عليها هذه الدار في زمن الفتح الإسلامي للعراق، وفي العصر العباسي.

كشفت المديرية عن أربعة أدوار لدار الإمارة شيدت أحداهما على أنقاض الأخرى[٣] وإذا تتبعنا ما دون في هذا المجال فإننا سوف نتيه في تفاصيل وأرقام غرف وممرات وساحات لا يعنينا ذكرها هنا، إلا إننا لابد من متابعة نتائج الحفريات للوقوف على مخطط القصر والأدوار التي مر بها وماطرأ على تصميمه من تغييرات سواء بالحذف أو بالإضافة.

السور الخارجي

يتألف السور الخارجي من أربعة جدران طولها ١٧٠×١٧٠مترا، ومعدل سمكها ٤أمتار، وتدعم كل ضلع من الخارج ستة أبراج نصف دائرية باستثناء الضلع الشمالية حيث يدعمها برجان فقط وتنتهي الأركان الثلاثة الشمالية والجنوبية الشرقية والغربية بثلاثة أبراج نصف دائرية ما عدا الركن الشمالي الغربي فإنه يتصل بسور المسجد.

ويمكن أن نحدد قياس هذا البرج بثلاثة أمتار و٦٠سنتيمترا. أما المسافات بين كل برج وآخر فكانت ٢٤مترا و٦٠سنتيمترا، وأقصر هذه المسافات يصل إلى٢٢مترا.

ويبدو أن ارتفاع هذا السور بأبراجه كان يصل إلى ما يقارب ٢٠متراً الذي يرشح لهذا الاستنباط إن أساس هذا السور كان عريضا مما يظن أنه كان يتخذ لرفع البناء إلى ما يقارب من هذا التحديد. وأما مداخل السور فقد ظهر من نتيجة التنقيب أن الباب الرئيسي لهذا السور يتصل بطريق وسط يؤدي إلى عرصة أو فناء الدار، وقد تبين أن هذا الباب يتألف من برجين مربعين، وإن البرج الغربي هو برج المسجد المتصل بالدار، ويبرز كما يبدو على هيئة نصف دائرة تقريبا. أما البرج الأخر فهو طرف الضلع الشمالية للسور... وكان هناك اتصال بين ضلع المسجد القبلية وبين نهاية الضلع الشمالية الغربية للسور، وفي هذه المنطقة وجد مرفق يتألف من ثلاث غرف، وأن الباب الرئيس لها يطل على القصر، وإنه كان المدخل الذي يصل منه الأمير إلى المسجد عن طريق الباب صغير قد قد في حائط المسجد الجنوبي وطرف السور. وفي الضلع الشمالية

(١) المصدر السابق ص٧٩-٨١.

(٢) خالد خليل حمودي الاعظمي/ الزخارف الجدارية في آثار بغداد ص٢٠.

(٣) مديرية الآثار العامة/ النشاط الآثاري في العراق١٩٥٩ص٩.

الشرقية للسور كشف عن ثلاث غرف مستطيلة الشكل. أما في الضلع الشرقية للسور فقد تم الكشف عن غرفة واحدة منه فقط، والضلع الجنوبية تقع في وسطها ثلاث غرف[١]

قال الدكتور كاظم الجنابي: إن السور الخارجي بقي على ما كان عليه منذ بدء تشييده، ولم يطرأ عليه تغيير أو تعديل في البناء سوى تغيير في القسم الجنوبي عند الإيوان، فقد حدث تغيير ضئيل في قواطع هذه الايونات المؤدية إلى عرصة الدار، وقد حدث ذلك أبان العصر الأموي[٢].

الدار (القصر)

أولا: الطبقة الأولى(دور البناء الأول): وهذه الطبقة تنزل أسسها إلى عمق ٩٠سنتيمترا في الأرض البكر، وهي أذن أول بناية شيدت في هذا الموضع ولربما كانت دار الإمارة الأولى التي شيدها سعد ابن أبي وقاص، أو قد تكون بقايا بناية شيدت قبل مجئ المسلمين إلى الكوفة[٣].

ثانيا: الطبقة الثانية: وتتكون من سورين داخلي وخارجي، ولربما شيدا في زمن واحد، على أننا نرجح أن تشييد الداخلي قد تم قبل الخارجي لاختلاف مستوى التبليط الأول فيهما حيث يعلو تبليط السور الخارجي بقليل عن تبليط السور الخارجي.

وتمثل هذه الطبقة على الأرجح دار الإمارة في العصر الأموي[٤]

ثالثا: الطبقة الثالثة: قصر عباسي له سوران، خارجي: وهو سور الطبقة الثانية نفسه بعد ترميمه، وسور داخلي جديد يضم بنايات عديدة متنوعة التصاميم والاتجاهات والأغراض. وقد شيدت جميعها بعد نقض القصر الثاني الأموي.

رابعا: غرف شيدت بعد هدم الطبقة الثالثة وذلك في القسم الشمالي يظن أنها من القرنين الثالث والرابع للهجرة، ولعلها هي التي شاهدها الطبري المؤرخ وأطلق عليها-القصر الحالي-وتدل المعالم على أن السور الخارجي كان قائما في ذلك الزمن، ويمكن أن نسمي هذا الدور بالطبقة الرابعة.

خامسا: بقايا أسس متفرقة من الآجر الصغير تقوم فوق أنقاض السور الداخلي ومرافقه، وتعود إلى أبنية متأخرة استخدم مشيدوها أجزاءاً من السور الخارجي، وهي على غرار الأبنية الالخانية استنادا إلى حجم الآجر، وكذلك من معرفة كسر الفخار ووجود بعض الدراهم الالخانية بين النقض[٥].

وصف موجز لتصاميم دار الإمارة بأطوارها المتعاقبة وفق نتائج التنقيب

لقد أظهرت التنقيبات بقايا أسس لبناء كان في الأصل قصراً بحد ذاته، وهذه الأسس ليست إلا بقايا جدران ذلك البناء الذي هدمه بناة القصر الثاني. ويتراوح سمكها بين ١،٨٠مترا و ٢،٠٠مترا. وبقايا هذه الأسس تكتنف أساس السور الداخلي للطبقة الثانية، وملاصقة له ويحتوي وجهها الخارجي على قواعد مستطيلة الشكل طولها نحو ٦،٥٠مترا، وبروزها نحو ١،٥٠مترا وبين كل قاعدة وأخرى مسافة تبلغ نحو ١٨،٣٠مترا وقد استخرج أربع منها أثناء التنقيب، وكلها متساوية في الأبعاد والشكل وهذه القواعد هي بقايا أسس الأبراج التي كانت تدعم سور دار الإمارة الأول.

إن هذا السور ينعطف مع السور الداخلي للطبقة الثانية في الجانب الغربي حيث يكون بموازاة ضلعه الغربية، وعلى هذا افترضنا أن باقي أضلاع هذه الدار تسير مع الاتجاهات الأخرى للطبقة الثانية فمن الممكن القول بأن أبعاد هذه الدار هي ١١٣،٦٠×١١٣،٦٠مترا من الداخل و ١١٥،٦٠×١١٥،٦٠مترا من الخارج، وإن عدد أبراج سوره من الخارج تساوي عدد أبراج سور الطبقة الثانية والثالثة، وتساوي عشرين برجا[٦].

الطبقة الثانية/ القصر الأموي

يتكون القصر من سورين خارجي وداخلي، الخارجي منهما فخم ثخين، وقد شيد بعد السور الداخلي. وأبعاده من الداخل ١٧٠×١٧٠مترا تقريبا ويتراوح ثخنه بين ٣،٥-٤أمتار، ويضم هذا السور أواوين عدة لصقت جدرانها على وجهه الداخلي بلا ربط وذلك بعد مدة من الزمن، ومعدل أبعاد هذه الأواوين ٤-٦،٣٠مترا، وسمك جدرانها نحو ١،٢٠مترا وعثر على بقايا مرافق أخرى بين هذه الأواوين والسور الداخلي وذلك في الدور الأخير من هذه الطبقة.

أما السور الداخلي فأبعاده تتفق مع أبعاد السور المبني فوقه، والذي يعود إلى الطبقة الثالثة. وبهذا تصبح أبعاده الداخلية ١١٠×١١٠مترا وثخن جدرانه نحو ١،٧٠مترا بما أن بقايا السور الداخلي ومرافق الدور المشيدة في الطبقة الثانية قد جعلت أساسا للطبقة الثالثة لذلك فسعة الغرف والتخطيطات ودور السكن في كلا القصرين متماثلة ما عدا تغيير بسيط

(١) د.كاظم الجنابي/ تخطيط مدينة الكوفة ص١٣٨-١٤١

(٢) المصدر السابق ص١٥٢.

(٣) مجلة سومر/ المجلد١٠ ج١ص٧٦. إلا أن الصبري يقول: لم يكن في الكوفة بناء حين نزلها سعد بن أبي وقاص(تاريخ الطبري٤:٤٤) ويقول الدكتور كاظم الجنابي: الكوفة لم تكن معروفة قبل أن ينزلها العرب، ولم يعرف عن مكانها أنه كان مستوطنا قديما قبل التاريخ أو بعده أو إلى الزمن الذي مصرت فيه(تخطيط مدينة الكوفة ص٥٧).

(٤) مجلة سومر/ المجلد ١٠ ج١ص٧٦.

(٥) المصدر السابق ص٧٦،٧٧

(٦) المصدر السابق ص٨٣.

جرى على مواضع بعض المداخل للغرف والسور حيث تنحرف قليلا أما إلى اليمين أو إلى اليسار عن مواضع المداخل التي تليها[1]

وقال الدكتور محمد حسين الزبيدي: وكشفت الحفائر عن كتابات من العصر الأموي كتبت على جدرانه في تلك الفترة بالحروف الكلدانية والارامية، وكانت معظم هذه الكتابات تنطوي على معاني الاستغفار والتوبة، وكان القصر يطل من ناحية الغرب على ميدان يسمى رحبة علي، وفي وسط القصر بنيت مصطبة كبيرة أعدت للاجتماعات[2].

الطبقة الثالثة/ القصر العباسي

وهو القصر الأخير أو بناء الطبقة الثالثة والأخيرة من قصر الكوفة. يحده سور ضخم هو السور الخارجي للطبقة الثانية بعد ترميمه. وأبعاد القصر من الداخل ١٧٠×١٧٠مترا تقريبا، وسمك السور نحو ٣،٦٠مترا، وتدعم جوانبه من الخارج أبراج نصف دائرية معدل قطر البرج ٣،٥٠مترا وتختلف الأبعاد بين الأبراج إلا أن البعد الغالب فيها ٢٤مترا، وتحتوي الضلع الشمالية على باب واسع في الوسط يدعمه برجان على جانبيه من الخارج، أحدهما قد ذهبت معالمه. أما السور الداخلي فقد أعيد بناؤه/ وكذلك بناء المرافق المتعددة المشيدة داخله/ وذلك بنقض جدران الطبقة الثانية بعد ترك نحو مترين من بقاياها لتكون أسسا للقصر العباسي. وهذا القصر مربع الشكل، أبعاده الداخلية ضمن سوره الداخلي ١١٠×١١٠مترا وسمك جدرانه ١،٨٠مترا، محاط من الخارج بأبراج نصف دائرية عددها عشرون، ومعدل قطر كل برج نحو ٣أمتار، أما عدد الأبواب في السور الداخلي فلا يمكن معرفته، إلا أننا كشفنا عن خمسة منها وهي باب كبير في وسط الضلع الشمالية وباب أخر في الجانب الغربي وثلاثة أبواب في الضلع الجنوبية في قسمها الغربي.

ويضم السور الداخلي مجموعات من دور سكن بسيطة التخطيط توفرت فيها المرافق التي كان يحتاج إليها بانيها. وقد كشف عن خمس ساحات كبيرة تحيط بها قاعات عدة أو غرف واسعة والدار الكبيرة منها خصص للطبخ، ففي إحدى الغرف عثر على مواقد يشاهد فيها آثار الحريق وفيها رماد يستدل من سعة هذه المواقد وكثرتها على أن المطبخ لم يكن خاصا لعائلة واحدة أو لنفر قليل. وتتصل بها غرفة خصصت لغسل الأواني والصحون حيث وجد فيها بقايا أحواض عدة من الآجر والجص وبقايا الزفت وبلاليع كثيرة ذات مجار خاصة لتصريف المياه بعد تصفيتها من المواد العضوية العالقة بها، وهذه البلاليع تماثل ما كشف عنه في التنقيبات في تل عمر(سلوقية) وفي سامراء، وتتكون هذه المجاري من حوض يؤدي إلى ساقية تمر فوق مجموعة من جرار اسطوانية الشكل مدببة من الأعلى صفت الواحدة بجانب الأخرى عموديا، وحفر أسفلها لتصريف المياه. وكذلك وجد بجانبها مجرى مشيد من الأجر والجص يؤدي إلى خارج الغرفة حيث تصب مياهه في بالوعة في وسط الساحة، وبواسطة هذه الجرار يمكن ترشيح المياه من المواد العضوية التي تتراكم داخل الجرار فتسيل المياه إلى البلاليع صافية فلا تأسن، ولا تخرج روائح كريهة.

أما القاعات الجنوبية لهذه الدار فعددها أربع، اثنتان منها شيدتا عموديا على السور، واثنتان موازيتان له. وعثر على باب كبير بجانبه درج واسع، وبهذا الباب يكون الاتصال بين هذه الدار والدار المجاورة.

وفي وسط القسم الجنوبي من القصر دار كبيرة مستطيلة الشكل يمكن الوصول إليها من خارج السور الداخلي من البابين الوسطيين في الضلع الجنوبية للسور، الباب الأول هو أوسع باب في هذه الضلع، والثاني يؤدي إلى مجاز. وتحاذي هذه الساحة في الجانب الشمالي غرفتان الأولى مضلعة الجوانب من الداخل وهي شبيهة بغرف ذات قباب مستديرة ووجدت على وجهها الخارجي الشمالي بقايا دعامتين مما يدل على وجود باب ذي قوس في ذلك الجانب. وعثر على جانب هذا الباب من الخارج بقايا زخارف جصية ذات رسوم نباتية صورت تصويراً عميقاً بأسلوب مغلظ مماثلة للزخارف المكتشفة في خرائب(حويصلات) العباسية بالقرب من سامراء، ومن النوع الخشن. وبهذه القاعة أربعة أبواب في الجهات الأربع يؤدي أحدها إلى غرفة مجاورة في جوانبها الأربعة كذلك أربعة أبواب. وقد عثر بين أنقاض هذه الغرفة الأخيرة على بقايا نقوش ذات أصباغ مائية.

أما في الجانب الغربي من الساحة فيوجد إيوان قليل السعة، على كل من جنبيه نصف اسطوانة من الأجر والجص تقابلها في كل من الركن الغربي والشمالي للغرفة نصف اسطوانة كذلك، ومن هذا الإيوان يمكن الاتصال بباقي المرافق في القسم الغربي من هذه الدار. ويستدل من تخطيط هذه الدار وطرز ريازتها على أنها خصصت لشؤون مهمة ولعلها كانت ديوان الحكومة، أو محل القائم بالإدارة.

وفي القصر دار كبيرة متعددة المرافق تدل المعالم الأثرية في جانبها الغربي على إن ذلك الجانب منها كان مخصصا للسكنى، ويصل بين غرفه ممر عريض وهذا الممر يفصل هذه الغرف عن الضلع الغربية للسور الداخلي ويمكن الوصول إلى

(١) المصدر السابق ص٨٣.

(٢) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة ص٢٩.

هذه الدار من مجاز قرب البرج الثاني للضلع الجنوبية. أما قسمها الشمالي فيتكون من قاعتين فسيحتين يدل سمك جدرانهما وريازتهما على أنهما لم يكونا غرفا للسكنى، ولعلهما تعودان إلى مجموعة غرف الإدارة المار ذكرها[١]

حوادث تاريخية شهدها القصر

أفادت نتائج التنقيب في هذه البقعة بأن قصر الإمارة عاصر الحكم العربي منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب حتى عهد سامراء العباسي، أو بعده بفترة. وخلال هذه المدة المديدة من الزمن ولكون القصر مقرا للحاكم والحكومة في المنطقة فهو إذن مسرح غني بالحوادث التاريخية المتباينة من حيث الأهمية. قال البراقي:... فكان يعرف بقصر سعد وبقصر الإمارة وبدار الإمارة، وكان منزلا خاصا للخلفاء والملوك والأمراء بعد سعد، وتكون به مؤامراتهم ومشاوراتهم، وأعظم مجتمع لهم ولبطانتهم، وأحكم حصن لهم إذا اعترتهم الكوارث فلم يزل على بنائه وأحكامه حتى هدمه عبد الملك بن مروان...[٢] إلا أن سني الستينات والسبعينات من القرن الأول الهجري اكتسبت أهمية واضحة منذ عام ٦٠هـ شهد قصر الإمارة مصرع مسلم بن عقيل رسول الإمام الحسين بن علي إلى أهل الكوفة، ورمي جثته من أعلى القصر، وكذا جرى لعبد الله ابن يقطر رسول مسلم بن عقيل إلى الحسين[٣] وجرت في القصر الاستعدادات لمواجهة موكب الحسين وآل بيته وأصحابه ثم دخول رأس الحسين ورؤوس شهداء كربلاء والسبايا من النساء والأطفال على عبيد الله بن زياد في دار الإمارة. وفي سنة٦٦هـ حكم الكوفة المختار بن أبي عبيد الثقفي وكان قصر الإمارة مقرا وحصنا له. وفي سنة٦٧هـ شهد القصر مصرع المختار على يد مصعب بن الزبير، وفي سنة٧١هـ شهد مصرع مصعب ابن الزبير على يد عبد الملك بن مروان....

والظاهر أن أهمية هذا القصر تضاءلت بعد ذلك، فلم تذكر المصادر حوادث مهمة حدثت فيه، ولعله أصبح مجرد مقر حكومي فحسب حيث أن الأنظار اتجهت إلى واسط ودار إمارتها.

مصير القصر

قال البراقي في معرض حديثه عن قصر الإمارة في الكوفة:«فلم يزل على نبائه وأحكامه حتى هدمه عبد الملك بن مروان تشاؤما منه»[٤] وقال الديار بكري: «في سنة٧١هـ هدم عبد الملك بن مروان قصر الإمارة في الكوفة وسببه أنه جلس ووضع رأس مصعب بين يديه فقال له عبد الملك ابن عمير: يا أمير المؤمنين، جلست أنا وعبيد الله بن زياد في هذا المجلس وراس الحسين بين يديه، ثم جلست أنا والمختار بن أبي عبيد فإذا رأس عبيد الله بن زياد بين يديه، ثم جلست أنا ومصعب هذا فإذا رأس المختار بين يديه ثم جلست مع أمير المؤمنين فإذا رأس مصعب بين يديه وأنا أعيذ أمير المؤمنين من شر هذا المجلس فارتعد عبد الملك، وقام من فوره وأمر بهدم القصر[٥].

وقال المسعودي: أمر عبد الملك بهدم الطاق الذي على المجلس[٦] ومهما يكن نوع الهدم جزئياً أو كلياً فإنه يعني بداية التغيير في بناء دام نصف قرن فقط إلا أن القصر أعيد بناؤه بعد عهد عبد الملك بن مروان دون أن يذكر تاريخ ذلك التجديد الذي يمثل الطبقة الثانية أو القصر الأموي.

والظاهر أن البناء الأموي هو الآخر لم يكتب له الدوام فقد امتدت له يد العباسيين وأحدثت فيه تغييرات تمثل الطبقة الثالثة أو القصر العباسي.

ومن نتائج التنقيب الذي جرى في موضع هذا القصر: العثور على آثار حريق هائل. وقد أثر هذا الحريق على وجوه الجدران والأجر وأحال لون البناء إلى لون أحمر داكن شبيه بلون الأجر في بطون الأفران. وتدل الظواهر على أن الحريق حدث في آخر دور من أدوار سكنى هذا القصر أي في أواخر زمن تبليطه الأخير، وربما كان هذا الحريق هو من الأسباب التي أدت إلى نقض هذا القصر[٧] وقال ابن بطوطة وهو يتحدث عن الكوفة سنة٧٢٦هـ: «أما قصر الإمارة في الكوفة الذي بناه سعد بن أبي وقاص فلم يبق منه إلا أساسه»[٨].

وقال الدكتور كاظم الجنابي: «لم يكن غريبا أن تختفي معالم دار الإمارة وتندثر كغيرها من المباني القديمة في الكوفة، وكان اختفاؤها أما بفعل عوادي الزمن أو بما درج عليه الناس في هدم المباني المهجورة واستعمال أجرها اقتصاداً في النفقات، أو لمجرد الرغبة في تحطيمها[٩]

المصادر

١-ابن الأثير: عز الدين علي بن أبي الكرم محمد.
الكامل في التاريخ/ دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ١٩٦٥م
٢-ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن محمد الطنجي
رحلة ابن بطوطة/ المكتبة التجارية الكبرى بمصر١٣٨٣هـ١٩٦٤م.

(١) مجلة سومر المجلد ١٠ج١ ص٧٧-٧٩
(٢) تاريخ الكوفة ص٩٣
(٣) المصدر السابق ص٢٨٥
(٤) المصدر السابق ص٩٣
(٥) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس٢:٣٤٥
(٦) مروج الذهب٢:١٢١
(٧) مجلة سومر المجلد ١٠ج١ص٨٢
(٨) رحلة ابن بطوطة١:١٣٨
(٩) تخطيط مدينة الكوفة ص١٣٦

٣-ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم.
لسان العرب/ دار صادر بيروت ١٩٥٥م
٤-الاعظمي: خالد خليل حمودي
الزخارف الجدارية في آثار بغداد/ دار الطليعة بيروت ١٩٨٠م
٥-البراقي: السيد حسن بن السيد أحمد تاريخ الكوفة ط٢. مط الحيدرية في النجف ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م.
٦-البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر فتوح البلدان/ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩م
٧-الجنابي: كاظم(الدكتور)
تخطيط مدينة الكوفة/ دار الجمهورية ببغداد ط١ ١٣٨٦هـ-١٩٦٧م
٨-الدياربكري: حسين بن محمد بن الحسن.
تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس/ المطبعة الوهبية. القاهرة ١٢٨٣هـ-١٨٦٦م.
٩-الزبيدي: محمد حسين(الدكتور)
الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري/ المطبعة العالمية-القاهرة-١٩٧٠.
١٠-الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير
تاريخ الرسل والملوك/ دار المعارف بمصر ١٩٦٦م
١١-مديرية الآثار العراقية العامة:
النشاط الآثاري في العراق/ مديرية الآثار العامة ١٩٥٩م.
١٢-المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين مروج الذهب/ مطبعة السعادة في مصر ط٤ ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.
١٣-المنقري: نصر بن مزاحم
وقعة صفين/ مطبعة المدني. المؤسسة السعودية بمصر. القاهرة الطبعة الثانية ١٣٨٢هـ
١٤-المؤسسة العامة للآثار. وزارة الثقافة والاعلام.
مجلة سومر/ المجلد ١٠الجزء الأول ١٩٥٤م.
١٥-اليعقوبي: أحمد أبي يعقوب بن جعفر بن وهب.
تاريخ اليعقوبي/ المطبعة الحيدرية في النجف ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

* * *